أبو الوليد الأزرقي وكتابه «أخبار مكة»

محمد علي مهدوي راد

مكّة مدينة عريقة وذات مكانة رفيعة، استقطبت إليها اهتمام الأمم والشعوب علىٰ مرّ الأجيال، ولها بُعد تاريخي موغل في القِدَم. كانت لهذه الربوع المقدّسة أهمية أقدم وأكبر من أي موضع آخر في تاريخ الإسلام، وفي حقبة تدوين الآثار التاريخية والجغرافية. سبق لنا وأن عرضنا مقالة عن قِدَم الكتابات المدوّنة بشأن مكّة[1] ووعدنا خلالها بتقديم عرض مسهب عن كتاب آخر قيّم وقديم حول تاريخ مكّة، واسم هذا الكتاب «أخبار مكّة ...» لمحمد بن عبد الله الأزرقي. ويبدو أن كتاب الأزرقي هذا يمكن عدُّه أقدم كتاب موجود عن تاريخ مكّة[2].

مؤلفه:

مؤلف الكتاب محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمّد بن الوليد بن عقبة الغساني المعروف بـ«أبي الوليد الأزرقي المكّي»، وهو من المحدّثين والمؤرخين،

بيد أنه لاتوجد بين أيدينا ـ وللأسف ـ معلومات دقيقة عن سنة ولادته.

قال عنه ابن النديم:

«هو محمّد بن عبد الله ... عقبة بن الأزرق ... وله من الكتب كتاب مكة وأخبارها وجبالها وأوديتها «كتاب كبير»[٣].

قال محقق الكتاب:

«ولد الأزرقي في مكّة المكرّمة في القرن الثاني للهجرة، ولم يعرف بالضبط تاريخ ولادته، ولا أشار إليه أحد من المؤرخين؛ لأن الأقدمين أهملوا ذكره بتاتاً. وترجمته التي وصلت إلينا من رواية المتأخّرين»[٤]. وسنة وفاته لم تُعرف أيضاً.

قال الحاج خليفة لما أتىٰ علىٰ ذكر كتابه:

«الإمام أبو الوليد محمّد بن عبد الكريم الأزرقي، المتوفى سنة ٢٢٣»[٥].

فيما أشار البعض الآخر إلىٰ أن وفاته كانت في عام ٢١٢[٦]، إلا أنَّ الفاسي يعتقد أنه كان علىٰ قيد الحياة حتىٰ سنة ٢٤٨[٧].

أما وستنفيلد الألماني الذي نشر الكتاب لأوّل مرّة فقد استند إلى الحوادث المنقولة في الكتاب، وعارض كلام الفاسي مؤكداً أن وفاته كانت في عام ٢٤٤. إلّا أن محقّق الكتاب خالف آراءه وصرّح بأن رواية الفاسي ليست خاطئة. ويبدو أن الأزرقي كان علىٰ قيد الحياة حتّىٰ سنة ٢٤٨[٨].

قال خير الدين الزركلي: إن وفاته كانت حوالي سنة ٢٥٠ للهجرة، وأورد في الهامش أسماء المصادر التي ترجمت حياته، وتعرّض إلى اختلاف الأقوال فيه[٩].

وعلىٰ كلّ حال ليست ثمّة معلومات عن حياة الأزرقي وأحداثها. والأثر الوحيد المتبقّي عنه هو هذا الكتاب الذي يعدُّ كتاباً نفيساً وثميناً ومفيداً.

اسم الكتاب:

سبق وأن أشرنا إلىٰ أن ابن

النديم أورد اسمه على الصورة التالية:

«كتاب مكّة وأخبارها وجبالها وأوديتها»[١٠].

وذكره السمعاني باسم «أخبار مكّة»[١١]. فيما أشار فؤاد سزگين إلىٰ كتاب الأزرقي تحت عنوان «أخبار مكّة المشرّفة أو كتاب فضائل الكعبة»[١٢].

وأخيراً وسمه السيد رشدي صالح ملحس باسم. «أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار». والاسم الذي جاء ذكره في كتاب «الفهرست» هو أكثر الأسماء تناسباً مع مضمون الكتاب، ولا يُعرف السبب الذي جعل المحقّق الفقيد يعرض عنه.

أهمية الكتاب:

كان هذا الكتاب النفيس على الدوام موضع اهتمام العلماء والمحدّثين والمؤرّخين، فقد استفاد منه الكثيرُ من الباحثين واستندوا إليه في تنظيم بحوثهم. قرأه عبد الكريم بن محمّد السمعاني، وهو مؤرخ وكاتب سيرة واسع الاطلاع، علىٰ بعض المحدثين، وكان يقول عنه:

«محمّد بن عبد الله الأزرقي حفيد أحمد بن محمّد الأزرقي، صاحب كتاب «أخبار مكّة» كتبه بمنتهى الروعة والدقّة»[١٣].

يقول محقّق الكتاب:

وقد درسنا كتاب (أخبار مكّة وما جاء فيها من الآثار) درساً وافياً واستقصينا بحوثه استقصاءً تاماً فألفيناه كتاباً مهماً، غزير المادّة، كثير الفائدة رغم خلوّه من الأبحاث السياسية والاجتماعية.

إن رأي المحقّق بشأن أهمية الكتاب وفائدته رأي صائب، أما قوله بخلّوه من الأبحاث الاجتماعية فلا يمكن قبوله؛ لأن نظرة عابرة علىٰ فصول الكتاب تثبت لنا أنه يضم بين دفّتيه مواضع مهمّة من نمط الحياة الاجتماعية في مكّة آنذاك ومعتقدات الناس وميولهم وطبائعهم.

وعلىٰ أيّة حال فكتاب الأزرقي يعدُّ أقدم كتاب عن تاريخ مكة وتتسم أخباره ومواضيعه بالدقة، ويضم بين طياته نصوصاً لا يمكن العثور عليها في موضع آخر، ولها أهمية كبيرة ومكانة معتبرة، ولا يستغني عنها الباحثون في تاريخ مكّة وتاريخ الإسلام وأوضاع ذلك الزمان.

نظرة خاطفة علىٰ أبواب وفصول الكتاب:

انتهج الأزرقي في تدوين الكتاب أسلوباً حاذقاً ويتميّز بالسلاسة والبساطة. إذ قسّم مواضيع الكتاب إلىٰ أبواب وفصول وزيّن نصوصه بذكر سلسلة الإسناد.

تبدأ مواضيع الكتاب بالحديث عن الكيفية التي نشأت فيها الكعبة. ويشير ضمن النصوص إلى السبب في تسمية مكّة بأم القرىٰ. ثم يأتي برواية منقولة عن الإمام الرابع عليه السلام فيها أيضاً إشارة إلى البيت المعمور»(ص٣٢-٣٣).

يتناول الفصل اللاحق كيفية زيارة الملائكة لبيت الله الحرام، وهبوط آدم عليه السلام إلى الأرض وبناء الكعبة، وأغلب هذه المواضيع منقولة عن وهب بن منبّه وكعب الأحبار. وقول «قرأته في كتاب من الكتب الأول» المنقول كذا قول كعب «وجدت في التوارة ...» لهي أقوال تستوجب التأمل حقاً. ومما يلفت الانتباه هنا رجوع عمر بن الخطّاب إلىٰ كعب وسؤاله عن الحرم والكعبة وما يتعلّق بهما (ج١، ص٤٠).

وهب بن منبه وكعب الأحبار من العلماء المطلعين على الديانة اليهودية ـ الإسرائيلية ـ ، ولهما دور عميق في بث الإسرائيليات والأفكار اليهودية في الديانة الإسلامية. وهذه الأفكار التي يشير إليها العلماء بـ«الإسرائيليات» كان لها تأثير كبير في تغيير أفكار المسلمين. وهذا الموضوع يجب بحثه والتعمّق فيه في موضعه المناسب.

يقول وهب بن منبّه: إنني وجدت في التوراة كيفية طواف آدم عليه السلام ودعائه، وهو ما تقوم عليه سُنّة الطواف، وفضيلة الكعبة، وأن البيت المعمور كائن بحيال الكعبة. ووردت في الصفحات التالية وتحت عدّة عناوين مواضيع تتحدّث عن المكانة الأساسية للبيت المعمور (ص٤٠-٥٠).

ومما يستلزم الدقّة في هذا المجال هي مجموعة النصوص المتعلّقة بالبيت المعمور، وما تنطوي عليه من تهافت واختلاف بشأنه. فبناء أو إعمار الكعبة كان بهمّة إبراهيم عليه السلام وهجرته إلىٰ هذه البقعة وإسكان إسماعيل وهاجر فيها، وموضوع الصفا والمروة هي من جملة المسائل التي يستعرضها في فصل آخر من فصول الكتاب (ص٥٣-٦٦).

أمّا الموضوع الذي يلي ذلك فهو كيفية حجّ إبراهيم، الذي نادىٰ بالتوحيد وهو أول معلّم للحج، والصورة التي طرح فيها الحج، نوع الطواف الذي كان يؤدّية الأنبياء من بعده مع وصف لشعائر السعي بين الصفا والمروة، وحكم الصلاة فوق سطح المقام وماإلىٰ ذلك (ص٦٦-٧٤).

ثم يتحدّث من بعد ذلك عن مكانة الكعبة ضمن تفسير الآية الشريفة ﴿**إن أول بيت وضع للناس ...**﴾ وشأن نزولها. ويشير إلىٰ حالة تلك الربوع، وشرف أرض الحرم وساكنيها والولاية علىٰ تلك المواطن، وعلىٰ مكّة والكعبة، ووصف كذلك زواج إسماعيل من إحدىٰ قبائل العرب آنذاك، وولاية أبنائه علىٰ تلك المناطق. والسبب في تسمية البيت بـ«العتيق» ومكّة بـ«بكّة» (ص٧٤-٨٠).

يذكر في فصل آخر من الكتاب أن الولاية على الكعبة ومكّة كانت بيد «جرهم»[١٤]، ولكن العار والفساد قد لحق بهم لانتهاكهم حرمة تلك الديار (ص٨٠-٩٠). ويصف من بعد ذاك ورود «خزاعة»[١٥] وسكناهم أطراف مكّة وسيطرتهم علىٰ تلك الاصقاع

واتّساع نفوذهم فيها (ص٩٠-١٠٣).

ينتقل الكتاب بعدَ ذلك للحديث عن حياة ونشأة قصي بن كلاب، وحصوله علىٰ ولاية البيت الحرام وما يتعلقبذلك منالحوادث(١٠٣-١١٦).

ثم يستعرض الكتاب قضية انتشار ولد إسماعيل، وظهور بوادر الانحرافات الفكرية والعقائدية، وظهور عبادة الأصنام، وهي قضّية تحظىٰ بأهمية بالغة من الوجهة التاريخية والاجتماعية. ويضم هذا الموضوع بين ثناياه نقاطاً مفيدة عن المعتقدات والأفكار والآراء الاجتماعية لحياة الناس في ذلك العصر.

يبدأ بعدها بالحديث عن تبدّل المعتقدات الأساسية للناس، وبداية عبادة الأصنام والاتجاه نحو نحتها في ربوع مكّة. ويذكر في هذا الفصل أوّل من ألقىٰ بين الناس عبادة الأصنام، وآتىٰ علىٰ ذكر حديث جاء عن النبي ﷺ يقول فيه:

إن أول من نصب الأوثان حول الكعبة، وغيّر الحنيفية دين إبراهيم هو عمرو بن لحي (ج١.ص١١٧).

وذكر أول من وضع الأصنام في الكعبة، ومن وضع الصنمين على الصفا والمروة ليعتبر بهما الناس إلّا أنهما تحوّلا إلىٰ سنّة منبوذة وعادة مستهجنة في شعائر الحج حتّىٰ كان يوم الفتح فكسرا مع ما كسر من الأصنام (ص١١٦-١٢٥).

تضمن هذا الفصل شرحاً لمكانة الكعبة في أذهان الناس، واحترامهم لها، والأصنام المختلفة التي كانت تُعبد في تلك البقاع، والقبائل والطوائف وما تقدسه من الأوثان، وبعض المعتقدات والمراسيم التي كانت تقام عند تلك الأوثان، وبعض ما كان يعتقده الناس بشأن الكعبة والأصنام وما شأنه ذلك.

وينقل كذلك في موضع آخر من الكتاب وصفاً لبعض معتقداتهم وتقاليدهم، التي تبدو وكأنها ذات طابع أسطوري، بيد أنها علىٰ كل الأحوال

تعكس وجهاً من أوجه الثقافة التي كانت سائدة في ذلك العصر. أضف إلىٰ أن بعض المعلومات الواردة في كتاب «أخبار مكّة» تعد أخباراً نادرة وفريدة من نوعها وذات أهمية قصوىٰ.

يستعرض الكتاب من بعد ذلك حادثتين تاريخيّتين مهمّتين وهما هدم الكعبة والسعي للتقليل من شأن ذلك البيت العتيق. وتحدّث أيضاً عن مآرب أصحاب تينك الحادثتين المعروفتين تاريخياً باسمي «تبع» و «الفيل»، وكان السرد التاريخي لهما دقيقاً ومفيداً، ويعكس المنزلة العظمية للكعبة قبل الإسلام، ومدى الأهمية التي كانت تحظىٰ بها بين العرب وغيرهم من الأمم والأقوام (ص١٣٢-١٥٤).

كما تناول الأزرقي أيضاً تأثير قصّة أصحاب الفيل في الأدب العربي، وذكر بعض الأشعار التي أنشدها شعراء ذلك العصر حول هذه الحادثة.

أما الفصل الذي يليه فيتّسم بالإطناب وله فائدة كبيرة، ويتحدث فيه عن إعلاء جدران الكعبة وإعادة بنائها ووضع «الحجر الأسود» وهذا السرد التاريخي منقول بطرق مختلفة، وحافل بالمسائل الاجتماعية والاعتقادية وآراء الجاهلية بشأن الكعبة ومكّة والحرم... الخ.

وصف أيضاً وبدقّة متناهية الصور والنقوش التي تزيّن جدران الكعبة، وتكلّم بهذه المناسبة عن دخول رسول الله ﷺ مكّة منتصراً وإزالته لمظاهر الشرك من بيت التوحيد، وعن دور علي عليه السلام في تحطيم الأصنام وتلاوة سورة براءة على الناس[١٦] (ص١٥٧-١٧٩). وجاء في سياق هذا الفصل ذكر طواف أهل الجاهلية، وطواف العريان ودور (الحُمس)[١٧] في ذلك.

كان لعرب الجاهلية في الحج وغيره تقاليد وسنن اجتماعية وسلوكية، وكانوا في بعض الأحيان يؤدّونها بكل إخلاص ومثابرة. وفي هذا الفصل تحدّث عن بعض التقاليد التي كانت

شائعة آنذاك في شعائر الحج، وعرض شرحاً مفصّلاً للتيار الفكري ـ الثقافي الذي كان ينتهجه «الحمس» و «أهل الحل» وكيفية حجّهم.

نقل في الفصل الذي يليه صورة عن طوافهم وإحرامهم واحترامهم للكعبة وموضوع «النسيء»[١٨] وأول من قال به، والآيات النازلة فيه. وتميّز هذا الفصل بالأهمية بسبب ما يتضمنه من أبعاد اجتماعية وثقافية (ص١٧٩-١٩٤).

تابع الأزرقي في هذا الفصل اللاحق بيان موضوع آخر ألا وهو إطعام الحّجاج وضيافتهم، وهو ما اتخذ في نهاية فترة العصر الجاهلي شكلاً خاصّاً[١٩]. وهذا من الأمور التي تلفت الأنظار في تلك الحقبة التاريخية، إذ تناول الكتاب أيضاً الحديث عن إطعام الزوّار وكيفية إسكانهم وغير ذلك من الشؤون المتعلّقة بالحج (ص١٩٤-٢٠٠).

ينتقل الكاتب من بعد ذلك إلىٰ وصف النفائس والتحف المعلّقة على الكعبة، ويحصي بعض الآثار المتبقية من العهود الغابرة، ثم يواصل متابعة هذا الموضوع فيتحدث عمّا وُضِع في الكعبة في العصر الإسلامي، ويأتي علىٰ ذكر حج هارون وأولاده، ويأتي بنص العهد المعقود بين محمد الأمين وعبد الله المأمون، وهذا الموضوع له أهمية من الوجهة التاريخية.

ثم يعود إلىٰ صلب الموضوع فيتكلم عن البئر الذي حفر في بطن مكّة على العهد الجاهلي وكانوا يُلقون فيه الهدايا (ص٢٢٣-٢٥٣).

كسوة الكعبة:

يتناول الأزرقي في هذا الفصل طرح مواضيع كثيرة ومختلفة، فيشير إلىٰ أول من كسا الكعبة (ص٢٤٩) ونوع تلك الكسوة، وتطييب الكعبة، وأنهم كانوا يكسونها كسوة فوق أخرى إلىٰ أن تراكمت عليها. واسم أول من جرّدها وكشفها.

تتّسم أقوال الأزرقي عن كسوة

الكعبة بالتضارب. وقد بادر محقّق الكتاب إلىٰ درج الأقوال المتضاربة في الهامش، وأضاف إليها أقوال الفاكهي في هذا المجال، وضم إليها روايات أخرىٰ، واستنتج في نهاية المطاف أن معاوية لم يكن في عداد من كسا الكعبة، وواصل الحديث عن كسوتها إلىٰ يومنا هذا. (ص٢٥٢-٢٨٦).

يستعرض الأزرقي في مطلع هذا الفصل بعض الأخبار التي تشير إلىٰ أنهم كانوا يكسون الكعبة في يوم عاشوراء و ... إلّا أن الباحثين يؤكدون عدم صحّة مثل هذه النصوص التاريخية، ويذهبون إلىٰ أنّها من وضع جلاوزة معاوية لاضفاء طابع قدسي علىٰ يوم عاشوراء.

ينتهج الأزرقي في كتابه هذا نمطاً من النقل التاريخي لا يأخذ بالحسبان التسلسل التاريخي للوقائع والأحداث، بل ينقلها حسب مناسبات ذكرها. فيستعرض في هذا الفصل حادثة حريق الكعبة، ومن ثم يعرّج علىٰ ذكر رمي الكعبة بالمنجنيق علىٰ يد الحصين بن نمير في أيام يزيد وكيفية تخريبها وإعادة بنائها في عهد سلطة ابن الزبير، مع ذكر التغييرات الأخرى التي أجريت علىٰ بناء الكعبة. والمواقف التي يذكرها الكتاب في هذا الصدد رائعة وجديرة بالمطالعة، حيث اعتبر البعض تلك الأحداث خارج نطاق قدرة الإنسان ولا بد من وجود يد للقدر فيها.

يقول الأزرقي:

أول ما تكلم في القدر حين احترقت الكعبة ...

ونقل في هذا الفصل من الكتاب خبراً أورده محمد بن كعب القرظي، وهو خبر يستحق التأمل فيه إذ يقول في مطلعه: «لما حجَّ سليمان بن عبد الملك وهو خليفة طاف بالبيت وأنا إلىٰ جنبه ...» (ص٢٢٠).

ومحمد بن كعب القرظي هذا من مفسّري التابعين وأصله يهودي، ومن الذين ساهموا في إشاعة الإسرائيليات

يومذاك. وهو [أول من أو] من أوائل الذين اختلفوا ونشروا قصّة الغرانيق. وكما أشرنا فيما سلف فقد كان للعلماء والمفسّرين من ذوي الأصول اليهودية دور في تشويه العقائد الإسلامية، ولا بد من إجراء دارسة موسّعة حول صلاتهم الوثيقة بالسلطات الحاكمة آنذاك ولا سيما السلطة الأموية. ونشير في هذا الصدد إلىٰ كلام أحَدِ الباحثين المطلعين قال فيه:

«والطريف في الأمر أنه كلما كان الرواة أقرب إلىٰ معاوية وسلطانه، كان دورهم في وضع وإشاعة الإسرائيليات أوسع»[٢٠]. وما نقلناه يمثّل واحداً من تلك الأمثلة والشواهد.

وليكون ذلك بالنتيجة تبريراً لسياستهم الدموية الظالمة. ويرىٰ علماء اللغة أن كلمة عاشوراء لم تطلق علىٰ يوم العاشر من المحرم الحرام إلّا من بعد استشهاد أبي عبد الله الحسين عليه السلام؛ فهذا المصطلح مصطلح إسلامي ولم يكن له وجود في العصر الجاهلي قط[٢١].

وفي الصفحات التالية من الكتاب وصف لدخول النبي صلى الله عليه وآله وسلم مكة منتصراً في عام الفتح، وصلاته في الكعبة، وأذان بلال وموقف قريش إزاء كلّ ذلك، وإخبار النبي عمّا اضمروه له ولبلال. وهذا يدل علىٰ حيرة المشركين من جهة ويعكس من جهةأُخرىٰ عظمة بلال، وعلىٰ معجزة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومعرفته بما يضمرون. دخل النبي المسجد في عام الفتح وأرسل إلىٰ سادن الكعبة عثمان بن طلحة يدعوه، ولما حضر أخذ منه المفاتيح ودخل الكعبة وصلىٰ فيها، ثم أَعادها إليه.

يصف الأزرقي في هذا الفصل كيفية دخول النبي وأصحابه بدقّة متناهية.

أشارت التفاسير والنصوص التاريخية إلىٰ أن الآية الشريفة: ﴿**إن الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلىٰ أهلها ...**﴾[٢٢]. قد نزلت في الحادثة التي سبق الحديث عنها وهذا التصور غير صحيح، إلّا أن المقام هنا لايناسب

لطرح المزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع.

إن للكعبة صيتاً ملأ الآفاق منذ عهود سحيقة. وتقف اليوم كالطود الشامخ علىٰ معبر التاريخ، ولها أسماء رائعة جذّابة لكل منها معانيه وأبعاده التي يذكرها الأزرقي في هذا الموضع من الكتاب إضافة إلىٰ أنه يذكر تلك الأسماء، ويشير إلى الظروف التي ساهمت في وضعها ومن جملتها: الكعبة ومكة والبيت العتيق والقرية القديمة وما إلىٰ ذلك. وتناول ضمن هذا السياق أسماء مكّة وأول من أذّن فيها، ومكانتها في النفوس، وعدم جواز إقامة بناء فيها على الكعبة. (ص٢٧٩-٢٨٣).

في الصفحات ٢٨٣-٢٨٦ جاء بتفسير الآيات التي تتحدث عن الكعبة، وذكر بعض النصوص التاريخية عن أول من طاف حولها وأول من سعىٰ بين الصفا والمروة، واضاءة الطريق للطائفين حول الكعبة وقاصديها هي والصفا والمروة. وفي هذا الفصل أيضاً وصف دقيق وشامل للكعبة وطراز بنائها، ومساحة المسجد الحرام آنذاك، والأعمدة والنوافذ الموجودة في داخلها، وسقفها، والتطوّرات التي حصلت في بنائها، والشاذروان، وتركيب أرضية البناء، وبابها والنقوش والخطوط المرسومة عليه، وبابها الآخر الذي أحدث في فترة زمنية لاحقة. ويعرّج أيضاً علىٰ ذكر ماء زمزم وما فيه من الفضيلة، ويتميّز هذا الفصل بكثرة المعلومات الواردةفيهوروعتها. (ص٢٨٦-٣١٩).

لحجر إسماعيل (الذي يجعل الكعبة ومكّة والحجّ مقرونة بذكرىٰ ذلك النبي العظيم) منزلة مرموقة في المسجد الحرام حتّىٰ صار يُحسب جزءاً منه، ولا بد من أن يكون أثناء الطواف داخلاً في المطاف. والكتاب يشتمل علىٰ نصوص كثيرة عن عظمة ذلك الحجر وهيئته وأهميته. (ص٣١١-٣٢١).

والأزرقي في كتابه هذا يكثر من ذكر الحوادث والمواقف عن قريش وعبد المطّلب وطفولة النبي ﷺ وصدر الإسلام. وينقل حادثة نزول سورة «تبّت» وتأثيرها العميق في كسر الهيبة الزائفة لأبي لهب وزوجته، ويذكر كيف أن وقع هذه السورة الشريفة أَغاظَ أمّ جميل وجعلها تصرخ وتولول. (ص٣١٦).

الحجر الأسود ظاهرة بارزة في بناء الكعبة، وهنالك نصوص تاريخية كثيرة تتحدث عن كيفّيته وأهميته. يتناول الأزرقي وصف الأركان الأربعة للكعبة مبتدئاً بالحجر الأسود، وينقل الكثير من النصوص والروايات بشأنه، ومن جملة ما أورده بهذا الخصوص أن عمر وقف يوماً أثناء الطواف مقابل الحجر الأسود قال:

«والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبّلك ما قبّلتك» فقال له علي عليه السلام: «هو يضر وينفع» فقال له: وبِمَ ذاك؟ قال «بكتاب الله». وجاءه بالدليل من القرآن الكريم، عندها قال عمر:

«أعوذ بالله أن أعيش في قوم لست فيهم يا أبا الحسن». (ص٣٢٤).

وبانتهاء وصف الأركان الأربعة، والروايات الواردة بشأن «الملتزم» وحدوده، ينتهي الجزء الأول من الكتاب وفقاً للتقسيم الذي وضعه المحقّق. وبعد ختامه ترد ملحقات كثيرة ومفيدة وضعها المحقق سنتحدث عنها لاحقاً.

يتحدّث الجزء الأول غالباً عن الجوانب التاريخية لمكّة في العصر الجاهلي وفترة ما قبل الإسلام. وفي الجزء الثاني يتناول ـ إضافة إلى الجوانب التاريخية في العصر الإسلامي والفترة التي سبقت ظهور الإسلام ـ طرحَ المواضيع الفقهية المتعلقة بأعمال الحج وكيفية أدائه، وأهمية وفضيلة المشاهد المشرّفة. ويبدأ هذا الفصل بالمواضيع المتعلّقة بالطواف، وينقل في

مطلعه الرواية التالية المنقولة عن النبي ﷺ أنه قال:

«من طاف بالبيت كتب الله عزّ وجل له بكلّ خطوة حسنة ومحا عنه سيّئة» (ص٣) جاءت في هذا الفصل روايات وأحاديث كثيرة عن النبي ﷺ وأصحابه في أهمّية وعظمة الطواف حول بيت الله، ومن جملة ذلك الفضل الكبير للطواف وآدابه، والنظر إلى الكعبة وكيفية التكلّم أثناء الطواف وإنشاد الشعر وقراءة القرآن. ويواصل الأزرقي هذا الفصل مشيراً إلىٰ طواف أحد الجن، ويتبع ذلك بمجموعة من النصوص التاريخية، التي تبدو وكأنّها ذات طابع أسطوري إلّا أنّها تعكس بشكل واضح وجهاً من أوجه التقاليد والثقافة الجاهلية.

ومما ورد في هذا الفصل أيضاً فضيلة الطواف تحت المطر[٢٣] أثناء شروق الشمس وغروبها وفي شهر رمضان، وتحدّث أيضاً عن أحد المواضع المقدّسة والعزيزة على النفوس ألا وهو «الحطيم» حيث يستغيث المسلمون عندها بالله تعالىٰ ويناجونه. أما بشأن الحيّز الذي يشغله الحطيم من جانب الحجر الأسود وباب الكعبة فهنالك اختلاف فيه، وكلام الأزرقي يدل علىٰ أن الحطيم واقع بين الركن والمقام وزمزم والحجر. (ج٢، ص٢٣).

بعد تعيين حدوده، ينتقل إلىٰ مركز الأخبار الدالة على المكانة الرفيعة التي كانت للكعبة في نفوس الناس في العهد الجاهلي، حيث كان الناس يجتمعون آنذاك في هذا الموضع للدعاء ومقارعة الظلم. (ص٢٣-٢٨).

ثم يتّجه من بعد ذلك إلىٰ وصف مقام إبراهيم، والحوادث التي اكتنفته علىٰ مرّ الزمان كاستبدال مكانه، والذهب المستخدم فيه، وارتفاعه وأبعاده الأخرىٰ (ص٢٩-٣٩). وبعد استعراضه لكيفية ايجاد بئر زمزم وهدمه ثم إعادة حفره بهمّة عبد المطّلب، يذكر قصّة نذره من أجل إنجاب الأولاد والتضحية بعبد الله

(ص٣٩-٤٩). إلّا أن قصّة نذر عبد المطلب، وقصد ذبح عبد الله الواردة أيضاً في المصادر التاريخية والكتب المدوّنة عن سيرة النبي ﷺ[٢٤] لا تمتاز بالدقّة اللازمة[٢٥].

ضم الفصل التالي من الكتاب بئر زمزم وفضيلته وطيب مائه وبعض الأحداث المتعلّقة به، والآراء والمعتقدات بشأنه. (ص٤٩-٦٢).

يبدأ الأزرقي بدرج المعلومات الدقيقة المتعلّقة بالمسجد الحرام اعتباراً من هذا الفصل، ويستهل حديثه بذكر فضيلة المسجد الحرام وأهمية الصلاة فيه، ويورد من طرق مختلفة الرواية المنقولة عن النبي ﷺ أنه قال:

«لا تُشد الرحال إلّا إلىٰ ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجد النبيِّ والمسجد الأقصىٰ».

وأنه استهدف من وراء ذلك تأكيد المكانة الرفيعة للمسجد الحرام. ونشير هنا إلىٰ وجود جدل واسع حول هذا الحديث وأنه صار أداة بيد ابن تيمية وأتباعه لدعم معتقداتهم. كما ويعتقد بعض محدّثي وعلماء العامّة أن هذا الحديث موضوع[٢٦].

من جملة ما جاء في هذا الفصل أيضاً، ذكر أول مَن أتىٰ بصلاة الجماعة حول الكعبة بشكل دائري، وموضع قبور بنات إسماعيل وبعض آداب الحضور في المسجد الحرام كالوضوء والنوم والإعلان عن المفقودين. ومن المثير هنا أن الأزرقي ينقل عن أحد الشهود قوله:

«رأيت النبي ﷺ يصلّي مما يلي باب بني سهم والناس يمرّون بين يديه ليس بينهم وبينه شبر» (ص٦٧).

يهتم الفصل اللاحق ببيان الكيفية التي كان عليها المسجد الحرام، وما طرأ عليه من تطوّرات نظير ما حصل في خلافة عثمان (ص٦٨) وفي عهد عبد الله بن الزبير (ص٦٩-٧١)، والوليد بن عبد الملك وأبي جعفر المنصور الدوانيقي والمهدي العباسي وغيرهم.

كما وتناول هذا الفصل أيضاً مساحة المسجد الحرام وعدد أعمدته وشرفاته والفواصل بينها، وخصائص أبوابه وعددها ومقدار المسافات الفاصلة بينها، وارتفاع جدران المسجد، وسقفه، ومنائره ومسنّناتها. والقناديل، والمظّلات التي يقف تحتها المؤذّنون، والمنبر وأوصافه وحجرته، والتغييرات التي أجريت عليه في عهد المعتصم عام ٢٢٠ للهجرة. كما أشار أيضاً إلىٰ موضع دار الندوة (منتدىٰ اجتماع ومناقشات قريش)، والشؤون المتعلقة بها وواجباتها، وهي ذات أهمية بالغة لكونها تساعد علىٰ معرفة التركيبة السياسية للمجتمع في فترة العصر الجاهلي، إضافةً إلى الكثير من المواضع التاريخية والجغرافية، والتعرف على المعتقدات والأفكار وهي مواضيع مفيدة للمحققين. (ص٨١-١١٤).

تتضمن الصفحات من ١١٤-١٢٦ وصفاً لموضع الصفا والمروة وحدوده وكيفية السعي بين الصفا والمروة، وسعي الرسول ﷺ، وسعي الراكب والمسافة الفاصلة بين الصفا والحجر الأسود، وبين الصفا والمروة والدرجات الموجودة في الصفا والمروة وكيفية بنائها.

ويعرض بعد ذلك وصفاً تفصيلياً لحدود الحرم ويستهلّه بقول لرسول الله ﷺ عند الفتح (ص١٢١-١٢٥) ويواصل الموضوع بطرح الأحاديث الواردة بشأن البيت المعمور، ثم يتحدث عن تعيين حدود الحرم وأول من عيّنها. (ص١٢٦-١٣٢).

وفي الصفحات اللاحقة من الكتاب يشير إلىٰ منزلة الحرم ومكانته المرموقة، ومدىٰ حرمة ارتكاب الذنوب في تلك البقعة، ولهذا الفصل أهمّية تسترعي الاهتمام من حيث الجوانب التاريخية والاجتماعية والثقافية. كما ويتضمن أيضاً الكثير من الروايات التي تتحدث عن حكم البيع والشراء في الحرم، وعدم جواز الظلم

والاحتكار في مكّة والحرم وعدم مراعاة الجوانب الإنسانية. ويؤكد أمن تلك المناطق وحرّية الناس فيها من أي سيطرة أو سلطان ووجوب الانصياع للأحكام الإلهية، وأسلوب مجازاة المجرمين والقتلة والسارقين اذا لجأوا إلى الحرم، أو ارتكبوا الجرم فيه. (ص١٣١-١٣٨).

تتناول الصفحات ١٥١-١٥٩ وصفاً لمكانة مكّة عند أهل الجاهلية والإسلام. واحترام الرسول ﷺ لمكّة وأرضها، والأشعار التي تعكس منزلتها في الأدب العربي وما شابه من الأمور التي أوردها تحت عنوان:

«ما ذكر من أهل مكّة أنهم أهل الله عزّ وجل».

لما استقر النبي ﷺ وأصحابه في المدينة لم ينسوا سحر مكّة وتألقّها، لأن ذكرىٰ مكّة بالنسبة لهم تعني ذكرى المواقف المبدئية، وإحياء ذكريات الصلابة والصمود علىٰ طريق الحق. ولهذا فإنهم كانوا يتذكرونها علىٰ مرِّ الزمن وتراودهم أمنية الوصول إليها، وقد دوّن الأزرقي تلك الذكريات بشكل يفوح رقةً وعاطفة نابعة من أعماق القلب. (ص١٥٣-١٥٧).

يبيّن في فصل آخر من الكتاب حدود المحصّب (وهو مسيل بين مكّة ومنىٰ) ومنزل نزله رسول الله ﷺ بعد فتح مكّة وفي الأيام التي بقي فيها، وقد ورد في النصوص التاريخية بأنه حينما كان يأتي مكّة بعد فتحها كان يذهب من بعد الطواف إلىٰ أعاليها، ويضرب له خيمة في الحجون ويقيم فيها. (ص١٥٩-١٦٤).

وفي عهد رسول الله ﷺ وما أعقبه من السنين لم يكونوا يبيعون البيوت في مكّة ولا يضعون عليها الأبواب ولا يكرونها. وإذا استغنىٰ أحدهم عن داره يعطيها لمن يحتاجها. ولكن إلىٰ متىٰ استمر هذا الوضع، وكيف تحول علىٰ مرِّ التاريخ؟ فهذا ما يمكن العثور عليه في الصفحات التالية من الكتاب. (ص١٦٢-١٦٥).

أطراف مكّة تحيطها جبال شاهقة. والأمطار الغزيرة تؤدي إلىٰ حصول سيول جارفة مع وجود الجبال حتىٰ أن بعض السيول قد حفرت لها أثراً في ذاكرة التاريخ. أورد الأزرقي تحت عناوين «سيول وادي مكّة في الجاهلية» و «سيول وادي مكّة في الإسلام» الكثير من السيول التي وقعت في تلك الأيّام، وأسماء ما كان له اسم منها والسبب في اطلاق تلك التسمية عليه. وهذه النصوص التاريخية تعكس وجهاً من وجوه الجغرافيه الطبيعية لمدينة مكّة ودور السيول في حياة الناس وفي الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لسكنة تلك البقاع آنذاك. (ص١٦٦-١٧٧).

تطرق أيضاً إلىٰ ذكر حدود «منىٰ» وموضع إقامة النبيّ ﷺ فيها، ومنازل أصحابه أيضاً، ومسجد خيف وطراز بنائه، والمساجد الأخرىٰ في منىٰ، وأول من رمى الجمرات، وكيفية نصب الأوثان علىٰ أرضها، والأعمال الواجب أداؤها هناك، والصورة التي كانت عليها في صدر الإسلام. (ص١٧٢-١٨٩).

أشير هنا إلىٰ أن الأزرقي أورد في ختام حديثه عن «مسجد كبش» خبرين متناقضين بشأنه؛ يظهر في الأول أن الذبيح كان إسحق فيما يدل الثاني علىٰ أنه كان إسماعيل. ومن الواضح أن الروايات الدالة علىٰ إسحاق في هذا المجال قد وُضِعت ونشرت علىٰ يد المفسّرين اليهود. وقد تنبّه المفسرون المسلمون الكبار[٢٧] إلىٰ هذه المسألة، ولكن يبدو أن بعضهم كالطبري لم يستطيعوا التخلّص من قبضة تلك الروايات الموضوعة[٢٨].

أَمّا الفصل الذي يليه فيتناول حدود مزدلفة (المشعر الحرام)، والمسجد القائم في تلك البقعة وتاريخ بنائه، والوقوف في المشعر الحرام. كما ويشير في هذا الفصل إلى السنن الجاهلية التي كانت متعارفة في الحج في ذلك الموضع. وقد وصف الأزرقي بدقّة

متناهية كلّ ما يتعّلق بتلك البقعة من الأرض صغيراً كان أم كبيراً، وحتّىٰ المرتفعات والمنخفضات الموجودة فيها. (ص١٩٠-١٩٤).

يتّسم وصف الأزرقي لعرفات بنفس الدقّة أيضاً ويشير فيه إلىٰ حدودها وكيفية الوقوف فيها، مع الحديث عن مختلف نقاطها وأماكنها وغير ذلك من الأمور المتعلّقة بها، ثم يعّرج من بعد كلّ هذا علىٰ تعريف مساجد مكّة، والمواضع التي كان يسكنها الصحابة وبعض القبائل. ويرسم تصويراً دقيقاً لآثار النبي ﷺ، ودار خديجة، والكثير من الدور والأماكن التي كان كل واحد منها مسرحاً في ذلك العصر لحوادث مصيرية في تاريخ الإسلام، إلّا أن حراب جهل السلاطين اليوم قد ضيّعتها وافقدتها معناها. ومن جملة الأماكن التي يقدّمها لنا مفصّلة في هذا الموضع من الكتاب جبل ثور، وغار حراء، وطريق النبيِّ من غار حراء إلىٰ جبل ثور، ومسجد البيعة (الذي بني في موضع بيعة النبي ﷺ من أهل يثرب)، ومسجد الجعرانة، والتنعيم و... الخ. (ص١٩٨-٢٠٩).

يتناول الأزرقي في فصل آخر من الكتاب مقابر مكّة والمدفونين فيها، ويحدّد أماكنها ومواقعها بدّقة ويذكر مَن هم الأشخاص الدين دفنوا فيها، ويصف أيضاً كيفية دفن الأموات في الجاهلية في المقبرة المعروفة بمقبرة مكّة قرب الحجون، وينتقل منها إلىٰ وصف مقبرة المهاجرين، ويذكر السبب في تسميتها بهذا الاسم. ويشير الأزرقي في هذاالفصل أيضاً إلىٰ وقوف النبي ﷺ علىٰ قبر أُمّه آمنة بنت وهب وبكائه عليها والتحدّث من بعد ذلك مع الناس. إلّا أن مثل هذه الأخبار مطعون بها من الوجهة التاريخية. فالنصوص التاريخية الصحيحة تشير إلىٰ أن آمنة بنت وهب توفيت في «الأبواء» وهي أحد المنازل بين مكّة والمدينة[٢٩] ودفنت هناك.

الخبر الآخر الذي ينقله الأزرقي يحكي أن آمنة ماتت على الشرك، وأن النبي ﷺ لما جاء إلىٰ هذه المقبرة استغفر لها، فأنزل الله تعالى الآية: ﴿**ما كان للنبيّ والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركينَ ولو كانوا أولي قربىٰ ...**﴾[٣٠] فنهاه عن الاستغفار لها.

ويأتي مفسرو أهل السنّة علىٰ ذكر مثل هذه الأخبار في هذا الخصوص، وربّما تكون مصحوبة أيضاً بالكثير من التفاصيل والتفريعات والإضافات بشأن أبي طالب عليه السلام وهي في الحقيقة لا أساس لها من الصحّة[٣١] فسورة التوبة مدنية ومن آخر السور التي نزلت علىٰ رسول الله ﷺ، بينما توفّيت تلك الشخصيات الكبيرة في مكّة، فكيف نزلت هذه الآية عند موتهم أو حين الاستغفار لهم؟ وقد ذكرنا أن أمّه قد توفّيت في الأبواء، فكيف وقف النبي ﷺ علىٰ قبرها في مكّة واستغفر لها، فنزلت هذه الآية؟! هذا فضلاً عن الأدّلة الكثيرة التي تثبت إيمانهم.

يتحدّث الفصل التالي عن الآبار والعيون ومزارع النخيل وما يتعّلق بها من شؤون تاريخية؛ ومثل هذا الموضوع ينطوي علىٰ فائدة كبيرة من حيث اتاحة الفرصة للتعرف على الجغرافيا الطبيعة، والاطلاع على الاوضاع المعاشية وغيرها من الظروف الزراعية والحالة الاقتصادية التي كانت سائدة آنذاك. (ص٢١٤-٢٣٢).

وآخر موضوع جدير بالقراءة ويتّسم بالدقّة يورده الأزرقي عن الدور والمحلّات والجبال المحيطة بمكّة، ويردفه بوصف دقيق ممزوج بالمعلومات الجانبية الكثيرة والمفيدة، علىٰ سبيل المثال: دار الأسود بن خلف الخزاعي .. التي اشتريت بمئة ألف دينار وهي نفس دار الإمارة أو «دار السلامة» عند سوق الحذّائين، (ص٢٣٤)، ودار آل حرب بن أمّية التي تسمىٰ أيضاً دار ريطة بنت أبي العباس، وهي نفس الدار التي قال عنها رسول الله ﷺ

يوم فتح مكّة: «مَن دخل دار أبي سفيان فهو آمن (ص٢٣٦) و ... الخ».

كان هذا استعراضاً خاطفاً لفصول كتاب الأزرقي، وهذا الاستعراض السريع يعكس للقارئ أهمية هذا الكتاب في الأبحاث التاريخية والإسلامية علىٰ أصعدتها المختلفة. إن كتاب الأزرقي هذا يمثل مصدراً هاماً وموروداً زاخراً بالمعلومات المتنوّعة. ومما لا شك فيه أن أي باحث في التاريخ الإسلامي لا يمكنه الاستغناء عن مطالعته والاستفادة منه.

أخبار مكّة من هو مؤلفه؟

ولكن كتاب أخبار مكّة هذا وبالخصائص التي لاحظناها، تأليف مَن؟ أهو لأبي الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي؟ أم لأحمد بن محمد بن الوليد أي جدّه؟

يقول وستنفيلد:(٣٢)

«إن هذا الكتاب يشبه في بعض الوجوه كتاب ابن هشام في السيرة النبوية، وذلك باشتراك أشخاص عديدين في تأليفه. بيد أنه لا يشبهه من جهة كونه مختصراً من مجموعات كبيرة، بل بالعكس فقد كان صغير الحجم ثم زيد عليه علاوات كثيرة وضم إليه مواد عديدة أدّت إلىٰ اتّساعه»(٣٣).

ويقول محقق الكتاب:

«والحقيقة التي لا ريب فيها أن واضع كتاب أخبار مكّة أو بعبارة صريحة جامعه ومرتبه ومؤلّفه هو محمد بن عبد الله الأزرقي رواية عن جدّه أحمد بن محمد الأزرقي وغيره من الرجال المعروفين. وكانت روايته عن جدّه أكثر من روايته عن غيره مما يدعونا للقول: بأنَّ المؤلف الأصلي للكتاب هو جدّه أحمد»(٣٤).

ثم يثبت محقّق الكتاب فيما بعد أن رواة آخرين أضافوا إلىٰ نسخة الأزرقي مواضيع وأخباراً أخرىٰ أيضاً.

اختصار الكتاب:

لقد كان كتاب أخبار مكّة في مستهل أمره مجموعة صغيرة كما قلنا، ثم أضيفت إليه مواد وزيادات جمّة بحيث صار كتاباً ضخماً في التاريخ، ومن ثم اختصره بعض المحقّقين، ونظمه أحدهم في أرجوزة.

١ ـ سعد الدين بن عمر الاسفرائني المكّي

وهو من علماء القرن الثامن للهجرة اختصر كتاب الأزرقي في كتاب سمّاه «زبدة الأعمال وخلاصة الأفعال» وكان كتاب الاسفرائني هذا في بابين: أولهما في ذكر فضيلة الكعبة وقد لخّصه بعد أن قرأه عليه محمّد بن أحمد القرشي المكّي الشافعي في مكّة. وثانيهما: في ذكر فضيلة المدينة وهو من زيادة المختصر. ثم يعرض محقّق الكتاب السيد رشدي ملحس نسخاً منه.

٢ ـ يحيىٰ بن محمّد الكرماني

وهو من علماء القرن التاسع للهجرة، اختصر كتاب الأزرقي في عام ٨٢١ للهجرة، وقد حذف أسانيده وأضاف إليه بعض الزوائد، وسماه «مختصر تاريخ مكّة المشرّفة»[٣٥]. ويوجد من هذا الكتاب نسخة أيضاً[٣٦].

٣ ـ عبد الملك بن أحمد ... الأنصاري الأرمانتي

وهو من فقهاء الشافعية في القرن الثامن للهجرة، نظم أخبار مكّة للأزرقي في أرجوزة. ذكره ابن حجر العسقلاني، ويبدو أن الكتاب لم يبق له من أثر اليوم[٣٧].

تحقيق الكتاب:

سبقت الإشارة إلىٰ أن كتاب أخبار مكّة قد تمّ تصحيحه وتحقيقه ونشره لأوّل مرّة علىٰ يد المستشرق الألماني وستنفيلد.

يقول عنه عبد الرحمن بدوي:

«نشر مجموعة تحت عنوان «أخبار مكّة: نصوص عربية وكان المجلّد الأول فيها كتاب أخبار مكّة للأزرقي ...»[٣٨].

وقد قابلَ وحقق وصحّح الكتاب علىٰ أساس ثلاث نسخ، ثم باشر طبع الكتاب في ليبسيك بألمانيا. وجاءت تصحيحاته في ١٤ صفحة، وأفرد له مقدّمة تاريخية عن المؤلّف وكتابه، ووصف النسخ الخطية التي اطّلع عليها.

الطبعة المعنية:

يؤكد المرحوم رشدي صالح ملحس في مقدّمة الكتاب علىٰ أهمية الطبعة السابقة ويشيد بجهود محققها. إلا أن ما تنطوي عليه من نواقص وتحريف وتشويه قد حمله علىٰ إصدار طبعة جديدة ومصححة لكتاب الأزرقي. وتتسم هذه الطبعة بالدقة وفيها الكثير من الإضافات التي تزيد من أهميتها وفائدتها.

نتحدث فيما يلي عن طريقته في التحقيق[٣٩].

١ - نسخة الكتاب:

اعتمد المحقّق علىٰ ثلاث نسخ خطّية إضافةً إلى الطبعة الأوربية في مقابلة وتصحيح وتحقيق الكتاب. قابل في بداية الأمر النسخ الخطية الثلاث وقارنها بالنهاية مع الطبعة الأوربية. وفي المسائل التي لا يطمئن إلىٰ صحتها يرجع إلى المصادر التاريخية ليقدّم نسخة منقّحة وصحيحة.

٢ - الهوامش:

يذكر في الهوامش النسخة البديلة، ويشرح بعض الأعلام والأماكن ومبهمات المتن. وينبّه إلىٰ بعض أخطاء المتن من خلال المقابلة والتطبيق مع المصادر الأخرىٰ، ويعطي في بعض الأحيان معاني الكلمات العويصة. إضافةً إلىٰ ما ذكر في الهوامش فإنه قد أورد في تصحيح أو تكميل الأخبار والنصوص إضافات مهمّة من قبيل تقديم الإيضاحات عن كيفية التصاوير الموجودة في داخل الكعبة. (ج١، ص١٦٥)، وبعض

الأماكن (ص١٩١)، كسوة الكعبة (ص٢٥٢)، أسماء الكعبة (ص٢٧٩)، الحجر الأسود (ص٣٤٦)، تطوّرات البناء في الصفا (ج٢، ص١٢٠)، المدفونين في مقبرة المهاجرين (ص٢١٣). والهوامش التوضيحية التي أوردها المحقق مفيدة ووافية.

٣ - الملحقات:

ذكرنا أن المحقّق قد طبع ونشر الكتاب في جزأين ولكل منهما ملحقات ضرورية ومفيدة. وملحقات الجزء الأول عبارة عمّا يلي:

أ ـ إكمال أخبار بناء الكعبة وما حصل فيها من تجديد. فهو وبناءً علىٰ أخبار الأزرقي يشير إلىٰ أنَّ الكعبة قد بُنيت عشر مرّات حتّىٰ زمن الحجاج بن يوسف. ثم يذكر بالتفصيل بناءها للمرة الحادية عشرة في عهد السلطان مراد بن السلطان أحمد من السلاطين العثمانيين. وهذا الخبر حديث ودقيق (ص٣٥٥-٣٧٣).

ب ـ ينقل الأزرقي أن عمرو بن لحي قد وضع صنم «الخلصة» في أسفل مكّة (ص١٢٤) وأقوال المؤرخين حول «ذي الخلصة» متهافتة. فهل كان ذو الخلصة صنماً أم دار أصنام؟ ومن الذي أوجدها وكان يعبدها؟ والمحقق يستعرض بالتفصيل أقوال المؤرخين ويقارنها مع بعضها ويعرض النتيجة بشكل عملي ومُحقق. (ص٣٧٤-٣٨٩).

ج ـ ينقل الأزرقي الكتب التي أرسلها المأمون إلى الكعبة مع اللوح. وقد تحدثنا عنها فيما سبق. فهذه الكتب مغلوطة ومشوّهة فأرسل المحقق متونها إلى العلّامة والأديب المصري أحمد زكي باشا ليصحّحها جهد المستطاع. وقد أورد في هذا الملحق نص حديثه في هذا المجال.

أما ملحقات الجزء الثاني فهي كما يلي:

أ ـ ينقل الأزرقي صورة عن توسيع المسجد الحرام وصفة بنائه إلىٰ

عهد خلافة المهدي العباسي، وقد تابع المحقّق ذكر ما طرأ عليه من إضافات إلى العهد العثماني، (ص٣٠٥-٣٠٩).

ب ـ أورد الأزرقي بعض المواقيت، ووصف بعض حدود الحرم. وقد أضاف المحقّق إلىٰ هذا الفصل أيضاً إضافات، وأشار إلىٰ سائر المواقيت الأخرىٰ. (ص٣٠٩-٣١٠).

ج ـ ذكر الأزرقي الكثير من السيول التي جرت في مكّة. والمحقّق أضاف إلىٰ ذلك السيول التي دوّنت في التاريخ، ولم يُشر إليها الأزرقي. ويُحصي ما مجموعه ٨٥ سيلاً، آخرها الذي وقع عام ١٣٥٠ للهجرة.

د ـ يشير الأزرقي إلى القناة التي اشترتها زبيدة وأوصلتها إلىٰ مكّة: ومحقّق الكتاب يشير إلىٰ قناة أخرىٰ أيضاً أوصلتها زبيدة إلىٰ مكّة، وأغفلها الأزرقي.

هـ ـ يؤرخ المحقق للتوسع الذي حصل في المسجد الحرام في الأعوام ١٣٧٥-١٣٨٥ في العهد السعودي. إن ملحقات المحقّق علمية ودقيقة ومكملة لفوائد كتاب الأزرقي.

٤ - الفهارس:

الفهارس الفنيّة للكتاب متنوعة ووافية ومفيدة، وهي:

١ ـ فهرس الآيات؛ وغالباً ما يرافق هذه الآيات تفسيرها أو شأن نزولها، وهذا مما يستفيد منه المفسّرون والمحقّقون.

٢ ـ فهرس الأحاديث، وكلها مسندة ولبعضها أهمية من حيث الوجهة التاريخية والاعتقادية.

٣ ـ فهرس الأنبياء، ويتضمن الحديث عن إبراهيم، وآدم، وإسحق، وإسماعيل، وداود، وشيت، وصالح، وعيسىٰ، ومحمّد، وموسىٰ، ونوح، وهود، ويعقوب، ويوسف، ويونس عليهم السلام. وأكثر ما ورد عنهم في هذا الكتاب له صلة بالكعبة.

٤ ـ سدانة الكعبة، ويتحدث في هذا الفهرس عن الحجابة والسقاية

والرفادة والإفاضة وغير ذلك. وكما ذكرنا سابقاً فإن هذه البحوث تحظىٰ بأهمّية بالغة؛ لأنها تعكس طبيعة الأوضاع الاجتماعية والسياسية لتاريخ مكّة.

٥ ـ الأيام التاريخية، وهي الأيام التي لها شأن في تاريخ مكّة لسبب أو آخر؛ كيوم واقعة الفيل، ويوم بناء الكعبة، ويوم الهجرة، ويوم أحد، ويوم عكاظ، ويوم الأحزاب، وما إلىٰ ذلك.

٦ ـ أسواق العرب، ويأتي في هذا الفهرس علىٰ ذكر الأسواق الأربعة المذكورة هي: الحباشة، وذو المجاز، وذو المجنة، وعكاظ.

٧ ـ الأصنام، ومعرفتها مهمّة لكونها تعكس الاتجاهات والميول العقائدية الشائعة في العصر الجاهلي. وقد أشرت فيما مضىٰ إلىٰ أن الأخبار التي أوردها الأزرقي في هذا الكتاب هي الوحيدة من نوعها أحيانا.

٨ ـ فهرس الأعلام.

٩ ـ فهرس الأقوام والقبائل ويضم أسماءً من أمثال الأزارقة، وآل جحش، والدوس، والأوس، والخزرج، وثقيف، وثمود، وكنانة، وقريش، وهاشم، وهذيل، وما إلىٰ ذلك.

١٠ ـ فهرس الأماكن، ويشمل أسماء الأماكن والبقاع والآبار، وأبواب المسجدِ الحرام، والقرىٰ، والشُعَب، والمحلّات، وغير ذلك.

١١ ـ فهرس قوافي الأشعار.

١٢ ـ فهرس مصادر التحقيق والتصحيح وقد عرضها بدقّة متناهية.

٥ - مقدّمة الكتاب:

أفرد محقّق الكتاب له مقدمةً مفيدةً تحدّث فيها عن بداية التدوين في الإسلام، وقد قدم ما كتبه المحقّقون والمؤلفون بشأن مكّة، وعن المؤلف وعائلته. ثم بحث في «أخبار مكّة» والجهود المبذولة في تأليفه. وتناول من بعد ذاك المختصرات والتلخيصات وغيرهما من الأعمال التي جرت على

الكتاب، وما تتصف به النسخة الأوربية من نواقص وأخطاء. وتحدّث في الختام عن أسلوبه في التحقيق، والنسخ التي عوّل عليها.

ترجمة الكتاب إلى اللغة الفارسية:

يعد السيد الدكتور محمود المهدوي الدامغاني من الأساتذة الأفاضل في الجامعة وأحد المترجمين الجادّين في ترجمة النصوص التاريخية، والقراء الكرام علىٰ معرفة تامّة بترجماته الكثيرة. وقد بادر هذا الأستاذ إلىٰ ترجمة هذا الأثر النفيس وإخراجه علىٰ هيئة نثر يتّسم بالسلاسة والجودة، والدقّة. وبسبب ما يحظىٰ به الكتاب من أهمّية فقد أورد ضمن الترجمة جميع الأسانيد المذكورة فيه.

وكما ذكرنا سابقاً فإن المحقّق الكريم قد دون في الهوامش اختلافَ النسخ، وأعطىٰ معاني الكلمات العويصة أحياناً. والمترجم المحترم أيضاً قد تمعّن في ترجمته ولم يأتِ إلّا بما هو ضروري في فهم المتن. كما تُرجمت جميع الملحقات والتوضيحات التي أوردها المحقّق في نهاية الكتاب، وكذا الحال بالنسبة للهوامش أيضاً. وأضاف المترجم أيضاً الكثير من الايضاحات بشأن الأعلام الواردة أسماؤهم في المتن، وعن الأماكن والمواضيع الأخرىٰ. وأينما واجه أفكاراً تتنافىٰ عقيدة التشيّع قدّم الإيضاح الدقيق لها وأشار إلى المصادر الأخرىٰ.

* * *

لقد طال الحديث عن الأزرقي وكتابه الثمين؛ وكان هدفي مقارنة كتابه بكتاب الفاكهي وعرض أوجه التشابه الموجودة بينهما. فهل أن الفاكهي قد أخذ عن الأزرقي، أم كلاهما قد استقيا من مصدر آخر ومن مواضيع أخرىٰ؟ إلّا أنني أتجاوز هذا الموضوع بسبب ضيق المجال.

الهوامش :

(١) مجلة ميقات الحج، العدد ٣: ٢٢.
(٢) كما ذكرنا سابقاً هنالك كتاب اسمه «تاريخ مكّة» وينسب إلى الحسن البصري ويبدو أنَّ نُسخة منه موجودة في مكتبة تيمور في دار الكتب المصرية (تاريخ المدينة المنوّرة، ج ١، المقدّمة) إلّا أنه لا توجد معلومات دقيقة عن محتوياتها وصحّة نسبتها.
(٣) الفهرست: ١٢٤-١٢٥.
(٤) أخبار مكّة (المقدمة): ١٣.
(٥) كشف الظنون ١: ٣٠٦.
(٦) أخبار مكّة (المقدّمة): ١٣.
(٧) العقد الثمين.
(٨) أخبار مكّة، المقدمة.
(٩) الأعلام ٦: ٢٢، وأيضاً راجع كتاب معجم المؤمنين ٣: ٤٢٩، طبع مؤسسة الرسالة.
(١٠) الفهرست: ١٢٥.
(١١) تاريخ التراث العربي: ١، الجزء الثاني: ٢٠٣.
(١٢) الأنساب ١: ١٢٢، طبعة بيروت.
(١٣) الأنساب ١: ١٢٢، طبعة بيروت.
(١٤) «جُرهم»، فرع من قحطان، وللاطلاع علىٰ مزيد من المعلومات عن تاريخ هجرتهم من اليمن إلىٰ مكّة، وتفّرعهم واتساع نفوذهم في تلك البقاع، أُنظر كتاب: معجم قبائل العرب ١: ١٨٣، والمصادر الواردة فيه.
(١٥) خزاعة، من قبائل العرب الكبيرة في العصر الجاهلي و ... راجع كتاب: معجم قبائل العرب ١: ٣٣٨، والمصادر الواردة ذكرها فيه.
(١٦) نقل الأزرقي عن هذه الحادثة، أي إبلاغ سورة براءة علىٰ يد علي عليه السلام، إلّا أن نقل الوقائع السابقة واللاحقة لها غير تام وغير شامل. ويمكن في هذا الصدد مراجعة كتاب. إحقاق الحق ١٤: ٤٩٩، والتبيان ٥: ١٦٩، ومجمع البيان ٥: ٣، و... الخ.
(١٧) راجع كتاب معجم القبائل العربية ١: ١٣٠.
(١٨) للاطلاع علىٰ مزيد من المعلومات حول «النسيء»، راجع كتاب: التفهيم لأوائل صناعة التنجيم: ٢٢٣، وذيل الآية ٣٦ من سورة التوبة في التفاسير.
(١٩) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، أحمد بن إبراهيم شريف، ص١٨٨-١٨٩، ونظام الحكم والإدارة، محمد مهدي شمس الدين: ٥١٧.
(٢٠) بحوث مع أهل السنّة والسلفية، سيد مهدي روحاني: ٨٤، وأيضاً راجع كتاب: ربيع الأبرار ٢: ٨٤٢-٨٤٤.
(٢١) النهاية ٣: ٢٤٠، والجمهرة ٤: ٢١٢، وأيضاً أُنظر: مجلة الهادي، السنة السابعة، العدد الثاني: ٣٦، والصحيح من سيرة النبيِّ الأعظم ٣: ١٠٤.

(٢٢) النساء : الآية ٥٨. راجع كتاب الميزان ٤ : ٣٧٨، والتمهيد ١ : ١٤٧.

(٢٣) وُفّقتُ في عام ١٣٧٢ للهجرة الشمسية لأداء العمرة، وفي مكّة كنت مُستصحباً معي كتاب الأزرقي وكنت أطالع فيه وادّون بعض المعلومات المفيدة في إعداد هذه المقالة، إلىٰ أن وصلت إلى الروايات التي تؤكد فضيلةَ الطواف تحت المطر، فتمنّيت أن يحالفني الحظ لأداء مثل هذا الطواف. وفي أحد الأيام هطلت الأمطار شديدة وقت صلاة الظهر، وكان الحجاج يطوفون حول بيت الله بشوق صادق وعميق، وكانت الأفئدة مغمورة باستشعار الرحمة الإلهية. وأنا أيضاً كنت أطوف مع الناس في ذلك «الميعاد» مسلماً قلبي لله. واتجه الكثير من الحجاج بعد الطواف إلىٰ حجر إسماعيل ليغسلوا الأبدان والأرواح بالماء الذي تسكبه ميزاب الكعبة من سطحها.

(٢٤) وراجع أيضاً كتاب: الكافي ٤ : ٢١٧؛ ومَن لا يحضره الفقيه ٢ : ١٤٧.

(٢٥) أُنظر كتاب: من لا يحضره الفقيه ٣ : ٨٩؛ وكتاب علي الدواني، تاريخ إسلام از اغاز تا هجرت (تاريخ الإسلام من البداية وحتّى الهجرة) : ٥٤؛ والصحيح من سيرة النبي الأعظم ١ : ٦٩.

(٢٦) نقل هذا المضمون بشكل آخر. لغرض التعرّف على الحديث والرواة، راجع كتاب: نقد الحديث في علم الرواية وعلم الدراية، للدكتور حسين الحاج حسن ٢ : ٤٠، والوهابية في الميزان : ١٤٨ وما بعدها، والسنة قبل التدوين : ٥٠٢.

(٢٧) راجع كتاب: تفسير القرآن العظيم ٤ : ١٧؛ والتبيان في تفسير القرآن ٨ : ٤٧٤؛ والميزان ١٧ : ١٥٥؛ ومحاسن التأويل ١٤ : ١٢١ و ... الخ.

(٢٨) جامع البيان في تأويل آي القرآن ٢٣ : ٨٥.

(٢٩) سيرة ابن هشام ١ : ١٧٧؛ وإمتاع الأسماع ١ : ٧، وسيرة الحلبي ١ : ١٠٥.

(٣٠) التوبة : ١١٣.

(٣١) تفسير القرآن العظيم ٢ : ٣٤٤؛ وفي ظلال القرآن ٣ : ١٥٦٤؛ تفسير الحديث ١٢ : ٦٤.

(٣٢) مستشرق ألماني كبير، يتصف بالمثابرة وسعة الاطلاع. وقام بتحقيق وتصحيح الكثير من المتون القديمة، طبع كتاب «أخبار مكّة» لأوّل مرّة في عام ١٨٥٧. راجع كتاب: الاعلام للزركلي ٨ : ٩٩؛ وموسوعة المستشرقين، لعبد الرحمن بدوي : ٣٩٩، حيث تجد سيرته ومؤلفاته مدوّنه بشكل وافٍ ودقيق؛ المستشرقون، نجيب العقيقي ٢ : ٣٦٧؛ وفرهنگ خاورشناسان (معجم المستشرقين)، أبو القاسم حالت : ٣٥٤.

(٣٣) أخبار مكّة، المقدمة : ١٦.

(٣٤) أخبار مكّة، المقدمة : ١٦.

(٣٥) أخبار مكّة، المقدمة : ١٨، وأيضاً راجع كتاب: معجم المؤلفين ٣ : ٥٦٦، طبعة مؤسسة الرسالة.

(٣٦) المصدر نفسه : ١٩؛ وأيضاً راجع كتاب: الأعلام ٨ : ١٦٦.

(٣٧) الدرر الكامنة ٢ : ٤١٤؛ أخبار مكّة، المقدّمة : ١٩.

(٣٨) موسوعة المستشرقين : ٤٠١.

(٣٩) الطبعة التي عوّلنا عليها، مستنسخة بالأوفسيت على الطبعة الثالثة للكتاب، والمنشورة في عام ١٤٠٣ من قبل دار الأندلس في بيروت. ومميّزات الكتاب الذي استفدنا منه درجة بالشكل التالي: «أخبار مكّة» انتشارات الشريف الرضي، قم، ١٤١١.